

مشيخة الجالية الجزائرية بمدينة تونس خلال فترة الحماية الفرنسية 1882-1956م.

Sheikhdom of the Algerians in Tunisia during the period of the French protectorate 1882-1956 AD



ط.د.حمو دريد *

مخبر بحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر

جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي.

drid-hammou@univ-eloued.dz

أ.د.موسى بن موسى

مخبر بحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر

جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي.

benmoussa-moussa@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2023/02/06 تاريخ القبول 2023/04/14 تاريخ النشر 2023/05/14



ملخص:

يتناول هذا المقال دراسة تعريفية بمشيخة الجزائريين بمدينة تونس خلال فترة الحماية الفرنسية 1882-1956م، وفيه نسلط الضوء على مؤسسة المشيخة التي تمثل إحدى المؤسسات التقليدية التي وظّفها الاستعمار لخدمة مصالحه باستعمالها كحلقة وصل بين الإدارة الاستعمارية والمهاجرين الجزائريين بتونس.

الكلمات المفتاحية: المشيخة؛ الشيوخ؛ الهجرة؛ الحماية الفرنسية؛ مدينة تونس.

* المؤلف المراسل

Abstract:

This article deals with an introductory study of the Sheikdom of the Algerians in Tunisia during the period of the French protectorate 1882-1956 AD, in which we shed light on the institution of the Sheikdom which represents one of the traditional institutions that colonialism employed to serve its interests through using it as a link between the colonial administration and the Algerian immigrants in Tunisia.

key words: The chiefdom; The elders; South Algeria; French protection; Tunis city.

مقدمة:

فرض الجوار الإقليمي بين الجزائر وتونس تواجدا معتبرا للجزائريين في المدن التونسية، مما شكّل تنوعا اجتماعيا وثقافيا ساهم في بروز تجمّعات سكانية جزائرية متباينة الأقاليم، هذا ما فرض عليهم مشيخات لتنظيمهم أمام السلطة الفرنسية من جهة، والسلطة التونسية من جهة ثانية.

ومن أجل مراقبة جالية الجنوب الجزائري المقيمة بتونس والاستفادة منها ماديا عملت السلطة التونسية بتوصيات من سلطة الحماية الفرنسية على إيجاد تنظيم إداري يتولى إدارة شؤون المهاجرين الجزائريين بتونس ومن خلال إنشاء نظام المشيخة، هذا النظام الذي سيكون حلقة الوصل بين الجزائريين المتواجدين بتونس والإدارة التونسية بما يخدم عموما إرادة الحماية الفرنسية على تونس ما بين 1881-1956م.

إن دراسة هذه الآلية وفهم ميكانيزمات عملها وتأثيراتها تعد ضرورة لفهم جوانب مغيبية لعلاقة الإدارة الاستعمارية وممارستها ضد الحضور الجزائري بتونس من جهة، ولفهم العلاقة التي تربط أفراد الجالية الجزائرية بمدينة تونس من جهة ثانية.

وعليه نطرح الإشكالية الآتية التي مفادها:

ما طبيعة المشيخة التي فرضت على الجزائريين بتونس ودور شيوخهم خلال فترة

الحماية الفرنسية؟

المبحث الأول : تركيبة الجالية الجزائرية بتونس

تعتبر مدينة تونس أهم قطب لاستقرار الجزائريين الوافدين من مختلف مناطق البلاد الجزائرية حيث بلغ عددهم 9125 نسمة سنة 1936؛ أي كانوا يمثلون أكثر من 11% من الأهالي المسلمين¹، فبعد ثورة المقراني 871 م توافدت أمواج من الجزائريين نحو البلاد التونسية، واستقر معظمهم بالمناطق الشمالية لتونس بنواحي جندوبة، وباجة وبنزرت، وماطر، وخاصة تونس العاصمة التي تكاد تكون فيها بعض الأحياء شبه خاصة بالجزائريين، كأحياء باب سويقة وباب الجديد و باب المنارة.

المطلب الأول: التليون

نسبة إلى الإقليم التليّ؛ أي سكان شمال الجزائر من المقاطعات الإدارية الثلاث: الجزائر، قسنطينة، وهران. وعادة ما تكتسي هجرتم الصبغة العائلية النهائية، ويستقرون بتونس بشكل دائم، دون عودة في الغالب باستثناء القادمون من منطقة القبائل أو الأوراس، التي تميزت هجرتهم بأنها فردية ومؤقتة.

الفرع الأول: الجزائريون (سكان العاصمة والمنطقة الوسطى من الجزائر)

الجزائريون يُقصد بهم كل الوافدين من عمالة العاصمة، حيث ورد في رسالة موجهة من المقيم العام الفرنسي بخصوص تعيين شيخ على الجزائريين بتونس بأنّ المقصود بالجزائريين هم كل المقيمين في تونس والقادمين من مقاطعة الجزائر العاصمة²، وهي المنطقة الممتدة من الشلف غربا إلى بجاية شرقا والجلفة جنوبا، التي تشمل ست وحدات إدارية وهي : الجزائر العاصمة، سور الغزلان، والبليدة، ومليانة، الشلف، وتيزي وزو³.

شكّل القادمون من منطقة القبائل (الزواوة) ثلثي المهاجرين من عمالة الجزائر نحو تونس، ويُفسّر سبب هجرتهم بطبيعة الأراضي الجبلية والضيقة وتفتت ملكيتها بالإضافة إلى السياسة الفرنسية في المنطقة. كما أنّ هناك عامل آخر مهم، وهو أنّ تواجد القبائل بتونس يعود إلى ما قبل فرض الحماية الفرنسية على تونس سنة 1881م، حيث استعان

بهم البايات كفرقة عسكرية مساندة للجيش التونسي⁴، أُطلق عليها فرقة الزواوة واستُخدموا بشكل أساسي في قمع التمردات. وفي الحروب الخارجية. وقد قُدر عددهم ب 20 ألف عسكريا، ومع فرض الحماية تم الاستغناء عنهم، وتم حل الفرقة⁵.

وحسب سجل إحصاء الجزائريين لسنة 1876م فقد مثل عدد القادمين من عمالة الجزائر نسبة 18% من مجموع المهاجرين. وأهم ميزة تميّز بها مهاجري عمالة الجزائر أنّ هجرتهم كانت عائلية بالنسبة للقادمين من العاصمة و البليدة والمدية... الخ، حيث لا يعتمون العودة مجددا إلى الجزائر، في حين أنّ الوافدين من منطقة القبائل فهجرتهم ذكورية بدرجة أساسية بسبب كونها مؤقتة ظرفية⁶.

استقر القبائل في الأحياء التي كانت مقرّا لثكناتهم بقلب مدينة تونس في شارع سيدي علي عزوز و 21 شارع باب سعدون هذه الثكنة الأخيرة، "قشلة الزواوة"، تم تقديمها لهم من قبل البايات السابقين لمكافأتهم على خدماتهم : و هي عبارة عن مبنى من طابق واحد تم تحويله إلى فندق يحتوي على 34 غرفة، يستوعب العجزة من كبار السن الذين بلا مأوى وطلبة العلم، بينما توزّع باقي مهاجري عمالة الجزائر على كل أحياء العاصمة تونس⁷.

مارس سكان القبائل العديد من الحرف الصغيرة لبيع الفواكه والخضروات في السوق المركزي، وهي المهنة التي يتبنّاها في العادة الوافد الجديد، ثم يشرعون في وظائف أخرى كالعامل في المطاعم والمقاهين، ومحلات الجزارة أو تصليح الحلي والأحذية، أو العمل في المناجم بجبل الجلود والسكك الحديدية، أو ترام... الخ. كما مارس بعض المتعلمين منهم وظائف حكومية كسعاة بريد أو مدرسين⁸.

الفرع الثاني: القسنطينيون

هم سكان مقاطعة قسنطينة الواقعة في الجزء الشرقي من الجزائر (البحرية والجبالية والصحراوية)، يحدّها من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الشرق تونس، ومن

الجنوب الزاب، ومن الغرب مقاطعة الجزائر. وتنقسم إلى سبع مقاطعات: قسنطينة، بونة (عنابة)، باتنة، بوجي (بجاية)، قالمة، فيليب فيل (سكيكدة)، وسطيف، وعندما تم تنظيم الأقاليم الجنوبية في عام 1905م، فقدت دائرة قسنطينة جزءاً من أراضيها الواقعة في الجنوب، والمعروفة باسم إقليم تقرت⁹.

هاجر معظم سكان مقاطعة قسنطينة في شكل أسر جماعية خاصة بعد احتلال جنوب قسنطينة، وبسبب تردي الأوضاع الاقتصادية والثقافية، حيث قُدّر عددهم في جانفي 1947م حوالي 12000 نسمة حسب إحصائيات المراقب المدني، بعدما كان تعدادهم 42 مهاجرا فقط عام 1876م، وقد ساعدتهم جملة من العوامل على الهجرة منها سهولة التنقل، والقرب من الحدود التونسية، حيث أنّ السفر لا يتعدى بعض الأسابيع¹⁰.

ويمثل القطاع القسنطيني سكان عنابة وبجاية وقسنطينة، وخاصة العنّابين المعروفين بكثرة عددهم واستقرارهم المبكر في تونس منذ أكثر من قرن، وأصبحت لديهم ملكيات كبرى في تونس وضواحيها. كما هو الحال في بنزرت، بينما سكان النمامشة، خنشلة وتبسة فكانوا بنسبة أقل، وقد بلغ عددهم ما بين 1936 و1945م حوالي 2500 مهاجرا¹¹.

ويمكننا أن نُميّز بين فئتين من مهاجري قسنطينة إلى فئة الأثرياء وأغلب هؤلاء قديم من المناطق الشمالية للعمالة من عنابة وبجاية ومدينة قسنطينة واختصوا في تجارة الأقمشة، خاصة الحريرية، ما جعلها تحتفظ في تونس بنفس المناصب الحكومية تماشياً مع المكانة التي جاؤوا بها، وقد اندمجت هذه العائلات وعاشت على الطريقة التونسية، وما أثر في ذلك هو تصاهرهم مع بعض العائلات التونسية، وإن ما يلفت الانتباه هو أن هذه العائلات لم يكن لها تواجد في الوكالات، وهو أمر منطقي نتيجة لمكانتها الاجتماعية¹².

والفئة الثانية هم الفقراء وأغلبهم قدم من المناطق الجنوبية للمقاطعة من تبسة وخنشلة، حيث كانوا يمارسون مهنا صغيرة أو يعملون كعمال باليومية إذ يتدققون خلال فترات المجاعة المتوالية لعدة سنوات من الجفاف لذلك جاؤوا بأعداد كبيرة عامي 1945 و1946م، حيث قدر عددهم بـ 2500 مهاجرا¹³.

وتؤكد دراسة ماري " Marty " أن هؤلاء يأتون بماشيتهم إلى أحواز تونس دون الدخول إلى المدينة، حيث كان استقرارهم في أحياء مثل لالة السيدة المنوبية، والملاسين غرب العاصمة، وبحمام الأنف جنوب العاصمة، وقد استقر الكثير منهم بعائلاتهم في الفنادق. أما العزّاب فإنهم يذهبون إلى الوكالات المتواجدة بباب السويقة وباب الجديد، وتعود هذه الفئة إلى الجزائر موطنها الأصلي لأن بقاءها بتونس مؤقت ومرتبطة بالظروف الطبيعية¹⁴.

كما توجد فئة ثالثة من المهاجرين: أولئك الذين يأتون " للدراسة" في تونس، هذه الهجرة الفكرية مهمة جدا ومستقلة عن إطار الأصل العرقي، حيث مثل قرب مسجد الزيتونة وجهة مهمة لسكان الإقليم من أجل طلب العلم إذ شكّلوا أكثر من 88% من مجموع الجزائريين بتونس¹⁵.

الفرع الثالث: الوهرانيون

هو مصطلح يُستخدم لوصف سكان مقاطعة وهران الواقعة غرب الجزائر، هذه المنطقة من الجزائر محدودة من الشرق بوادي الشلف الأوسط، ومن الغرب المغرب الأقصى، ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب المرتفعات الغربية للأطلس التلي، تشكّل إقليم وهران سنة 1848م، وقُسّم إلى خمس مقاطعات: وهران، معسكر، مستغانم، سيدي بلعباس وتلمسان¹⁶.

تعتبر منطقة وهران من المناطق التي عرفت هجرات جماعية للجزائريين بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، حيث كان محطة رئيسية لهجرة الجزائريين نحو المشرق

العربي، كما تواجد بها أكثر من 20 عائلة انصهرت ضمن المجتمع التونسي واكتسبوا عاداته وانقطعوا عن موطنهم¹⁷.

شكّل المهاجرون القادمون من مقاطعة وهران النسبة الأقل مقارنةً بباقي المهاجرين، فحسب سجل 1876م فقد قُدّرت نسبة الوهرانيين بتونس بـ 8% من مجموع الجالية الجزائرية بتونس¹⁸، لتتخفّف النسبة سنة 1921م إلى 7.8%¹⁹، وسنة 1926 إلى 6.8%²⁰.

ويعود السبب الرئيسي إلى انخفاض نسبة المهاجرين من مقاطعة وهران بتونس إلى العامل الجغرافي، حيث أنّ تونس بعيدة مقارنة بالبحر المتوسط التي مثلت الوجهة الأمثل لمهاجري المغرب الجزائري. استقرّ القادمون من مقاطعة وهران بشكل أساسي في الوكالات المتواجدة في حي باب جديد²¹، وكان لهم شيخا يتولّى إدارة شؤونهم كغيرهم من مكونات الجالية الجزائرية بتونس رغم قلة عددهم²².

المطلب الثاني: الصحراويون

نسبة إلى الصحراء الجزائرية الواقعة جنوب جبال الأطلس والتي تتميز بشساعتها، وهي الجهة التي جاء منها المهاجرون القادمون من الجنوب الجزائري، أي السوافة والمزابيون والورقليون والتواتيون.

تميّزت هجرة سكان الصحراء بصفاتها الفردية لا الجماعية وإقامات محدودة زمنياً. كما أنّها هجرة رجالية بالدرجة الأولى، إذ لا تمثّل هجرة النساء إلا العُشر من مجموع الرجال، هذا راجع لأسباب عديدة من بينها أنّ السوّافه مثلاً لا يستقرون مدة زمنية طويلة في تونس وبالتالي فهُم لَيْسوا في حاجة إلى جلب أهاليهم²³.

الفرع الأول: السوافة

نسبة إلى منطقة واد سوف التي تقع في الحدود الشمالية للعرق الشرقي في جنوب الجزائر، وهي واحة تتشكل من العديد من بساتين النخيل، ونظراً لقساوة البيئة الصحراوية

الرملية، ورداءة المعاش وضعف المداخيل المحلية، وعدم كفايتها لحاجيات السكان، كل ذلك جعل الهجرة خيارا أساسيا لدى السوافة لتحسين أوضاعهم الاقتصادية، مما أدى بالمئات من أبناء المنطقة يغادرونها سنويا للحصول على قُوت أهاليهم²⁴.

فكانت تونس الوجهة الأولى لمهاجري وادي سوف، ذلك بالنظر لعدة عوامل أبرزها القرب الجغرافي والمحاذاة الحدودية لمنطقة الجريد بالجنوب التونسي، حيث لا تبعد مدينة نفطة بالجريد التونسي إلا بثمانين 80 كلم فحسب، بالإضافة إلى انبساط المنطقة الشرقية من وادي سوف تجاه الأراضي التونسية، ووجود علاقات تاريخية تمثل امتدادا حضاريا سابقة للاحتلال²⁵.

استقر السوافة في ثلاث مناطق رئيسية بالبلاد التونسية، منها ما هو مرتبط بتقاليد الهجرة لأهل وادي سوف، وهي منطقة الجريد ومدينة تونس، بينما ارتبطت المنطقة الثالثة الجاذبة للسوافة بالاستغلال الرأسمالي للثروات الباطنية لمحمية تونس، وهي منطقة الحوض المنجمي بقفصة، حيث اعتمدت شركة فسفات قفصة على اليد العاملة الأجنبية، ومثل السوافة الفريق الجزائري الثاني، الذي تم الاعتماد عليه منذ بداية استغلال منجم الرديف ليتجاوز فيما بعد كل الفرق الأجنبية؛ أي القبائلية والطرابلسية والمغاربة²⁶.

وبمدينة تونس محل دراستنا استقر السوافة في الوكالات²⁷، التي كانت تُعرف (بدار السوفي)، تُمثل كل واحدة منها قرية أو مدينة أو جهة معينة، حيث ذكرت الباحثة الفرنسية مارتى Marty في دراستها حول الجزائريين في تونس أهم الوكالات التي استقر فيها السوافة بمدينة تونس هي: الوكالة الواقعة في 46 شارع الزاوية البكرية وسكن فيها سكان قمار، بينما سكن أهل كوينين في الوكالة الواقعة في شارع حمام الرميمي. أما الوكالة الموجودة بـ 06 بشارع صاحب الطابع فهي لأهل ورماس²⁸. مارس السوافة في تونس مهنا شاقة مثل الحمالة في الأسواق والموانئ، وعمال نظافة لدى البلدية، والبعض

منهم امتنهن التجارة عبر العربات المجرورة، لكن تبقى مهنة السقاية أكثر المهن التي مارسها السوافة بتونس²⁹.

الفرع الثاني: الورقلية

هم من السكان الأصليين لواحدة من أقدم المدن في جنوب شرق الجزائر: ورقلة عاصمة منطقة صحراوية شاسعة تزيد مساحتها عن 180,000 كم²، وتبعد أكثر من 1500 كم جنوب غرب تونس العاصمة المدينة هي "بوابة السودان" كما قال ابن خلدون مستحضرا الدور الذي لعبته ورقلة في تاريخ شمال إفريقيا³⁰.

الهجرة الورقلية إلى تونس قديمة قبل الاستعمار ، ففي رسالة من الشيخ أحمد بدوي الورقلي من عرش بني إبراهيم إلى الوزير الأول لباي تونس مباشرة إثر الصراع الذي نشب بين الورقليين والمغاربة سنة 1894 (المغرب الأقصى) عن أحقية حراسة سوق العطارين بتونس، حيث عمد المغاربة الوافدون إلى تونس إلى إزاحتهم وإبعادهم عن هذه المهمة التي كانت موكلة لهم والتي جاء فيها: " ... منذ خمسمائة سنة وحراسة سوق العطارين في عهدة الورقليين... " ³¹.

كما توضح وثائق الأرشيف الوطني التونسي³² العروش التي يتكون منها مهاجري ورقلة بمدينة تونس حيث توضّح حجة اتفاق عروش الوراقلة لاختيار مقدم عليهم الأولى المؤرخة بتاريخ 23 جمادى الأولى 1303هـ الموافق ل 28 فيفري 1886م³³ أنّ الوراقلة في تونس ينتسبون إلى خمسة عروش وهي: بني إبراهيم، بني سيسين، تماسين، بني وقين والشطوطة³⁴.

وإن المهنة الأساسية التي مارسوها في تونس هي حراسة الأسواق مثل سوق الباي، سوق القماش، سوق البركة وسوق الترك وسوق الكباجية وغيرها، ويتولى الورقلي هذه المهمة بعد أنّ يضمن فيه شيخ فرقته، الذي يقبض مرتباتهم ويعوّض التجار في حالة أي سرقة تطال بضائعهم، فيما مارس البعض الآخر وظائف أخرى كالخدمة في الإدارات

الحكومية أو في بيوت الأجانب أو بعض الأثرياء من التونسيين، أو في الحمامات لدى الميزابية... الخ³⁵.

يقيم الورقلي عند قدومه كحال مهاجري الجنوب في الوكالات أو ما يسمى بدار الجماعة، وكان لكل عرش دار خاص به، حيث ذكرت رسالة أرسلها مجموعة من الوراقلة إلى أمين عام الحكومة التونسية بأن وكالة عرش بني وقين بسوق الكباجية ودار جماعة بني إبراهيم قرب تربة الباي باب الجديد³⁶.

كما يوجد بمدينة تونس زنقة تسمى بزقة الورقالية بالقرب من سوق اللفة وسميت بهذا الاسم نظرا لتواجد دار يسكنها فقراء الورقالية، وكان يوجد بهذه الدار مقهى يجتمعون فيها لتناول القهوة والشاي وقضاء أوقات الفراغ، إذ تمثل فضاء للمؤانسة لأغلب الوافدين على حاضرة تونس من مختلف البلدان المغاربية مثل مقهى لبني إبراهيم مقهى بنهج الكنيسة قرب إدارة الحبوس³⁷.

وذكرت مارتى في مقالها السابق أربعة عناوين أخرى لوكالات الورقالية والواقعة في : 37 نهج السوردو، 29 سوق القماش، 14 شارع شلي، 7 زنقة بن أحمد، ويختلطون فيها بعدد من الجالية الجزائرية خاصة الجنوبية منها³⁸.

الفرع الثالث: الميزابية

هم سكان وادي مزاب الواقع جنوبا بصحراء الجزائر ويبعد عن العاصمة الجزائرية بحوالي ست مئة كيلومتر، ويتشكل من سبعة مدن رئيسية وهي العطف وبونورة وغرداية ومليكة وبني يزقن وبريان والقرارة، حيث يتميز المجتمع الميزابي بطابعه المحافظ ومذهبه الإباضي³⁹.

المجتمع الميزابي في تونس قديم جدا، يعود إلى النشأة الأولى للمذهب الإباضي في شمال إفريقيا، فلقد كانت منطقة الجريد التونسي وجزيرة جربة منطقة للتواجد الإباضي فكان التواصل العلمي والحضاري والثقافي بينهما مستمرا، خاصة بين جزيرة جربة ووادي

ميزاب، وهناك من يربط هجرتهم بتقاليد مورثة يفرضها العزابة على المذنبين في قضايا الزنا والسرقعة بعقوبة إبعادهم عن ميزاب حتى يروا ماء البحر لفترة من الزمن، وكانت وجهتهم مدينة الجزائر أو تونس. لقد وُجدت إشارات في الدفاتر الجبائية والإدارية بالأرشييف الوطني التونسي تشير إلى وجود "مُعلم حماجي" اسمه بكير مكلف بالإشراف على حمامات علي باشا في سنوات 1742-1743 م، وهو ما يعني أن المهجرة الميزابية قد تكون قبل هذا التاريخ لكنها تزايدت في الفترة الاستعمارية.⁴⁰

مارس أغلبية الميزابين وظائف مستقلة فقد كانوا يمتلكون عددا كبيرا من الحمامات وهذا ما تؤكد حجاج اتفاق الميزانية من مالكي الحمامات من أجل اختيار أمين لخطتهم ، ففي حجة اتفاق بتاريخ 23 أبريل 1912م نجد فيها أسماء خمسة عشر مالك حمام ، وما يؤكد أيضا على سيطرتهم على هذه المهنة هي توليهم لخطة أمين الحمامات⁴¹ ، كما امتهنوا التجارة خاصة بيع الفحم والخضر وبيع الخبز و اللحوم و الأقمشة⁴² .

على عكس باقي الجزائريين ليس لأهل الميزاب حي خاص بهم، ولا يسكنون في بيوت المدينة ولا في الوكالات بل كانوا يعيشون في الحمامات التي يمتلكونها وفي محلاتهم التجارية ومخازنهم، حيث يتم أيضا إيواء أولئك الذين لم توفر لهم وظائفهم أماكن إقامة، كما لم تكن لديهم مقاهي يرتادونها بل كانوا يتجمعون في الحمامات المتواجدة بشارع سيدي محرز، و سوق السلاح، شارع العلوي .. الخ⁴³ .

تميّز المجتمع الميزابي في تونس بالتضامن حيث توجد مسؤولية متبادلة بين أفراد الجالية الميزابية في تونس، ومن مظاهر ذلك إنشاء صندوق مالي حيث يُطلب من الجميع دفع مبلغ يتناسب مع دخلهم ويُشرف على هذا الصندوق الأعضاء الأكبر سناً والأكثر احتراماً، حيث يتكفل الصندوق بكل احتياجات الجالية الميزابية عند كل طارئ، كما أنّ هؤلاء هم نفس الأشخاص الذين يجتمعون كجماعة ذات سيادة ويحلون الخلافات بين الميزابين⁴⁴ .

الفرع الرابع: التواتية :

ينسب التواتية إلى منطقة توات⁴⁵ التي تُعدُّ جزءاً من الصحراء الإفريقية الكبرى، وتقع اليوم في الجنوب الغربي الجزائري حيث تمتد من العرق الغربي الكبير ووادي الساورة شمالاً، إلى صحراء تنزروفت عند الحدود المالية جنوباً، أما شرقاً تمتد من العرق الشرقي الكبير إلى وادي مسعود وعرق شاش غرباً.⁴⁶

أدى الوجود الاستعماري في منطقة توات وما أحدثه من تنظيمات سياسية وعسكرية وخاصة الاقتصادية الهادفة إلى السيطرة على الموارد الاقتصادية للإقليم إلى تدهور الوضعية الاجتماعية وتزايد الفقر، مما أدى إلى ارتفاع معدلات الهجرة، وكانت تونس من بين الوجهات التي كانت لها جاذبية لدى التواتية فهي طريقهم إلى الحج نحو مكة المكرمة ، وكانت بلادهم توات طريق القوافل التجارية القادمة من تونس نحو بلاد السودان، حيث انظموا إلى هذه القوافل كعمّال وخدم.⁴⁷

كان الوافد الجديد من التواتية إلى مدينة تونس يتوجّه إلى مكتب شيخ جاليتة الواقع في المدينة القديمة بالقرب من الأسواق وهذا من أجل تسجيله وتوفير العمل له⁴⁸، حيث عمل التواتية في حراسة المزارع والبساتين والمنازل بشكل أساسي، ومن أجل مساعدة بعضهم البعض عمل التواتية على إنشاء صندوق ادّخار ، فعندما يصل التواتي إلى تونس، يعني الصندوق باحتياجاته، طالما أنه ليس لديه عمل، فهو ينام ويأكل دون أن يدفع في دار الجماعة وعندما يجد عملاً يقدم بدوره مساهمته بانتظام، وإذا كان مريضاً بلا مال أو يموت تتمّ رعايته أو دفنه على نفقة الصندوق.⁴⁹

أقام التواتية في أربع وكالات والتي تقع في : 7 نهج بن محمود، 31 نهج سوق السلاح، 53 نهج باب المنارة، 58 نهج باب جديد، حيث تأوي هذه الوكالات بشكل أساسي العاطلين عن العمل بينما العاملون فهم ينامون ويأكلون عند صاحب العمل.⁵⁰

المبحث الثاني: التعريف بنظام المشيخة :

المطلب الأول: مفهوم المشيخة :

إن مؤسسة الشيخ هي : « مؤسسة محلية تمثيلية ذات طابع إداري - يتعهد بها مجموعة من الأفراد تربط بينهم شبكة من العلاقات لتيسير أداء مهامهم، وهي مؤسسة كانت لها فاعليتها في المجال السياسي والاجتماعي، ذلك خلال القرن 18م إذ عمل خلالها الفاعلون السياسيون على الانفتاح على المجال المحلي والتغلغل داخل المجتمع كمرحلة حاسمة لبناء الدولة الحديثة⁵¹. »

والشيخ لغة كلمة مشتقة من شاخ؛ أي صار شيخا. والجمع أشياخ وشيخان وشيوخ وشيخة ومشيخة، والشيخ هو الذي استبانت به السن وظهر عليه الشيب، والجمع أشياخ وشيخان وشيخة ومشايخ وشيوخ. وتطلق كلمة الشيخ على الطاعن في السن وقيل هو شيخ من خمسين إلى آخره⁵².

أما اصطلاحا، فتطلق كلمة الشيخ على العالم وعلى كبير القوم " علما وفضيلة ومقاما " وتستخدم عبارة الشيخ للدلالة على مكانة وسلطة صاحبها، فهي تشمل كبير القوم والعالم والأستاذ والعارف بالأمر الشرعية، وعلى من كان كبيرا في أعين القوم علما ورأيا وفضيلة ومقاما، وكلمة الشيخ مرادفة للعديد من التسميات التي تجدها في بلدان مختلفة فنجد مثلا كلمة "العمدة " و " المختار " في سوريا⁵³ ويقابلها أيضا مصطلح القايد بالجزائر.

المطلب الثاني: كيفية تعيين الشيخ ومهامه

في ظل نظام الحماية الفرنسية، كان مشايخ المهاجرين الجزائريين يُعيّنون بنفس الطريقة التي يتم بها تعيين شيوخ التونسيين، لكن الفرق في سلطة التعيين، فمشايخ الجزائريين تتولى تعيينهم إدارة الحماية الفرنسية، حيث ليس للحكومة التونسية أي سلطة عليهم باستثناء الرقابة المالية⁵⁴، فالمرقب المدني الفرنسي⁵⁵ هو من يقترح الشيخ المناسب لكل فرقة⁵⁶ من الفرق الجزائرية، باعتبار الجزائريين رعايا فرنسيين؛ أي مسلمين فرنسيين،

فيراسل بذلك الوزير المقيم بتونس، يرفق ذلك الإرسال في العادة بوثيقة للمعلومات الشخصية لمن يقترح لتولية المشيخة⁵⁷، وبعد إصدار الوزير المقيم قرارا بتعيينه يوجه مرفقا برسالة إلى أمين الحكومة التونسية من اجل ان تصدر امرا عليا بالتعيين من قبل باي تونس⁵⁸.

وبالرغم من أن المشيخة مؤسسة تقليدية نموذجية في المجتمعات المغاربية وأقدم بكثير من تغلغل الاستعمار الأوروبي في شمال إفريقيا، إلا أنها فقدت العديد من خصائصها الأساسية في الحقبة الاستعمارية، وبالتالي فقدت شكلها الذي كانت عليه، حيث تغيرت تدريجيا في وظائفها كهيئة إدارية تنظم العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع إلى هيئة شرطة إدارية ومالية تخدم إدارة الحماية الفرنسية.⁵⁹

فالمهمة الأساسية للشيخ بالنسبة لإدارة الحماية الفرنسية هي استخلاص الضرائب المفروضة على الجالية التي يتولون إدارتها، حيث تخضع للمراقبة بصفة دورية من قبل إدارة المالية⁶⁰، وإن اكتشفت هذه الأخيرة أي عجز أو ضعف في حسابات وأداءات الشيخ الضريبية، فيتم إخطار المراقب المدني الفرنسي، الذي يوجه له في العادة إنذارا أو توبيخا عن ذلك⁶¹، وإن تهادى تفرض عليه غرامة⁶²، وقد يعفى من مشيخته مع تعويض ما اختلسه طبعاً من قبله أو حتى من ضامنيه⁶³.

كما أن الشيخ مسؤولاً عن أمور أخرى من بينها الحالة المدنية لأفراد مجتمعه. ولهذا الغرض، يمكنه أن يصدر لهم جميع الوثائق التي يحتاجونها في تونس، بما في ذلك شهادات الإقامة، الجنسية، حجج ضمان،... الخ⁶⁴، والتجنيد العسكري عن طريق وضع قوائم للمجنّدين، والمساعدة في القبض على الفارين⁶⁵.

ولضمان الأداء الأمثل لهذه المؤسسة، تدخلت سلطة الحماية على أساس منتظم إما مباشرة من خلال اختيار الشيخ وفقا لقدرته على تحصيل الضرائب وهيئته في الوسط

المجتمعي، أو من خلال الضغط غير المباشر الذي وصل إلى حد التعديل الصريح لوظائفه.

المبحث الثالث: مشيخة الجزائريين بمدينة تونس

كان للجالية الجزائرية تواجد كبير خاصة بمدينة بتونس، حيث بلغ عددهم وفق إحصاء 1876م⁶⁶ ما قدره 937 جزائريا⁶⁷، وكانت إدارتهم تخضع لعامل البرانية⁶⁸ إلا أن عدم معرفة هذا العامل بالفرق الجزائرية وتمرد هذه الأخيرة عليه، جعل من الإدارة التونسية تسعى إلى استقلاليتهم عن شيخ البرانية، فصدر الأمر العلي في 13 جمادي الأول 1310هـ الموافق 02 ديسمبر 1892م بإنشاء مشيخة خاصة بالجزائريين تسهّل من عملية جمع الضرائب نظرا لعددهم الكبير بالحاضرة تونس، هذا للاستفادة منهم ماليا⁶⁹.

وبعد الإذن للجزائريين بالاستقلالية عن المشيخة التونسية اجتمع عدد كبير منهم لاختيار شيخ يمثلهم، فوق اختيارهم على الشيخ " محمد بن مالك الشريف الزواوي "، هذا ما وضحته حجة اتفاق بتاريخ 24 جمادي الأول 1310هـ الموافق 13 ديسمبر 1892م الخاصة باجتماع الجزائريين لاختيارهم شيخا خاصا بهم⁷⁰. غير أن هذه الشخصية لم يُصدر الإذن بتوليبتها، وأمام رفض الجزائريين الاتفاق على غيره، فقد تم اقتراح ضمّهم إلى مشايخ البرانية، إذ يكلف كل شيخ بمن هو بتراب مشيخته، حسب رسالة الشيخ " علي بن عثمان " عامل البرانية بتونس إلى الوزير الأكبر⁷¹.

أما السلطة الاستعمارية الفرنسية اكتفت بتعيين شخصيات من عدة عروش جزائرية تعمل لصالحها كأعوان اتصال واستعلام تحت مسميات مختلفة. وفي عام 1919 أنشأت السلطات الاستعمارية إصلاحا لصالح تقسيم شيخ الجزائريين إلى سبعة شيوخ وفقا للأصول العرقية والإقليمية لمختلف العناصر المكونة للجالية الجزائرية بتونس وهم :

الجزائريون (سكان العاصمة والمنطقة الوسطى من الجزائر)، القسنطينيون، الوهاريون، السوافة، الميزابية، التواتية، الوراقلة⁷².

يوضح الجدول التالي أهم مشايخ الجاليات الجزائرية بمدينة تونس في الفترة ما بين 1881-1956 م:

فترة المشيخة	تاريخ ومكان الميلاد	الشيخ	المشيخة
1919 - 1929	1857 تقمونت عزوز تيزي وزو	سي فرحات بن حسين بن نوة	الجزائريون ⁷³
1929	/	سي بن نوة محمد عمر بن فرحات	
1919-1929	1865 سوق أهراس	محمد صالح بن أحمد زروق	القسنطينيون ⁷⁴
1929-1943	مواليد 1879 بتونس أصيل عناية	الطاهر بن محمد بن مصطفى بورناز	
1944-1949	1882 قسنطينة	حماني بن عبد الرزاق المدعو حمو بن علي	
1950 - 1951	/	محمد بن محمد بن الحاج صالح خنتاش	
1919-1923	1862 مستغانم	أحمد بن الحاج قدور بن جنات	الوهاريون ⁷⁵
1923-1937	من مواليد تونس من أصيل تلمسان	بن عودة بن الحاج الاغواقي بن عودة	
1919 - 1923	1860 بالوادي	علي بن سلطان بن بلقاسم	السوافة ⁷⁶
1923-1937	العازلة الوادي توفي سنة 1937	أحمد بن محمد بن سعد المدعو أحمد الفار	
1938-1952	الوادي.	محمد بن القدري بن الحاج سالم	
1913 - 1938	1876 بني إبراهيم ، ورقلة	جلول بن محمد بن رمضان	الوراقلة ⁷⁷

- 1938 1943	/	أحمد بن أحمد بن سيد روجه	
-1919 1920	1850 غرداية	الحاج بن علي بن عمر باكير	
- 1920 1926	1870 ببني يزقن	حمو بن محمد عمي موسى	
1927	1882 بالقرارة	علي بن الحاج محمد بن الحاج بوعروة	
- 1927 1934	1883 بالقرارة	أعماراه الناصر بن يوسف بن أعماراه	
- 1919 1923	1869 توات	أحمد بن محمد الصالح	78 التواتية
- 1923 1935	1880 بأدرار	مبارك بن عبد القادر	
- 1936 1937	من مواليد 1882 بتوات .	مبارك بن عبد الرحمان بن الزبير	

وهكذا وتحت تأثير إعادة الهيكلة الجديدة هذه تمكن فرنسا من مراقبة الجزائريين من ناحية، وتوسيع قاعدة دافعي الضرائب من ناحية ثانية، حيث أصبحت عملية تحصيل الضرائب أكثر تنظيماً وأوفر تحصيلًا.

خاتمة:

وفي الأخير نخلص إلى القول الآتي:

* شهدت تونس حضوراً كبيراً للجالية الجزائرية بعد احتلال الجزائر سنة 1830، والتي جاءت هرباً من بطش الاستعمار وبمخاض عن فرص عمل لتحسين أوضاعها المعيشية.

* الحضور الأبرز للجالية الجزائرية بتونس كان للقادمين من المناطق الحدودية من مقاطعة قسنطينة أو من وادي سوف وورقلة وتقرت وحتى وادي ميزاب.

* التدفق الكبير للمهاجرين الجزائريين نحو مدينة تونس، أدى بإدارة الحماية الفرنسية إلى تطبيق تنظيم المشيخة على كل الجالية الجزائرية، وضمان استقلاليتهم عن مشيخة مدينة تونس.

* الدافع الرئيسي وراء تعميم نظام المشيخة على الجزائريين هو رغبة الاستعمار في تحصيل الضرائب منهم وتقييدهم في سجلات التجنيد.

الهوامش:

¹ - عبد الكريم الماحري، هجرة الجزائريين و الطرابلسية و المغاربة الجواننة إلى تونس 1831-1937، ط1، الشركة التونسية للنشر و تنمية فنون الرسم ، تونس، 2010 ، ص 145.

² الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 01 ، الملف 1/14 ، 1914-1929 ، الوثيقة 17.

³ - Jamel Haggui, *Les Algériens en Tunis de 1871 à 1962 du communautarisme au nationalisme*, les Edition Sahar, Tunisie , 2020, p27.

⁴ Marty (G) , " Les Algériens à Tunis " , *Revue I.B.L.A*, N°43 et 44, Tunis, 11ème année, 3ème et 4ème trimestres, 1948, p309.

⁵ Ibid, p309

⁶ الأرشيف الوطني التونسي، دفتر رقم 3968 .

⁷ Marty (G) , Op.cit, p309,311.

⁸ Ibid, p311.

⁹ Jamel Haggui, Op.cit, p30.

¹⁰ محمد بوطيبي ، " الهجرة الجزائرية نحو البلاد التونسية بين القرنين التاسع والعشرين 1830-1930م - (الجنوب الشرقي الجزائري نموذجا) ، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولي حول: التوصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر و تونس 12/11 نوفمبر 2013 ، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي ، ص 03.

¹¹ نفسه.

¹² بشير مديني ، الجالية الجزائرية بتونس "السوافة نموذجا" 1876-1954 ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر ، السنة الجامعية 20005 - 2006 ، ص 24-25.

¹³ محمد بوطيبي ، المرجع السابق ، ص 05.

¹⁴ Marty (G) , Op.cit, p306.

¹⁵ Ibid, p308.

¹⁶ Jamel Haggui, Op.cit, p32.

¹⁷ Marty (G) , Op.cit, pp 314,315

¹⁸ الأرشيف الوطني التونسي، دفتر رقم 3968 .

¹⁹ Dénombrement de la population civile tunisienne (musulmane et israélite) en Tunisie de 06/03/1921.

²⁰ Dénombrement de la population civile tunisienne (musulmane et israélite) en Tunisie de 20/04/1926.

²¹ Jamel Haggui, Op.cit, p82.

²² الأرشيف الوطني التونسي ، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 01 ، الملف 2/14 -1919 - 1948 ، الوثيقة 01 .

²³ Marty (G) , Op.cit, p302.

²⁴ Jamel Haggui, *les algériens originaires du sud dans la ville de Tunis pendant l'époque colonial (1881-1956) (mozabites, souafas, ouarglias)*, mémoire DEA, université de manouba, année universitaire 2003-2004, p9.

²⁵ بشير مديني ، المرجع السابق ، ص ص 75-76 .

²⁶ عبد الكريم الماجري ، السوافة بالبلاد التونسية من خلال المصادر الأرشيفية : الأهمية العددية وإسهاماتهم في الحياة الإقتصادية والإجتماعية (1860-1960) ، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولي حول: التوصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر و تونس 12/11 نوفمبر 2013 ، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي ، ص 01 .

²⁷ مساكن جماعية ي منتشرة في مناطق تواجد الجزائريين ، ويفسر سبب انتشار هذا النوع من المساكن على نطاق واسع بين الجزائريين، بمحدودية مدة الإقامة وارتفاع معدل ذكورة التيار المهاجر .

²⁸ Marty (G) ,Op.cit p317.

²⁹ Ibid, p 316 .

³⁰ Jamel Haggui , les algériens originaires du sud dans la ville de Tunis .Op.cit, p 11.

³¹ E .Buthaud . « Le Gardiennage des souks de Tunis ». **Revue IBLA**. 5E Année – juillet 1942 .p.257-258.

³² الأرشيف الوطني التونسي ، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 278 ، الملف 5 1888-1948 : يتناول هذا الملف انشغالات الوراقلية بتونس .

³³ المصدر نفسه ، الوثيقة 8 .

³⁴ المصدر نفسه ، الوثيقة 16 .

³⁵ المصدر نفسه ، الوثيقة 61 .

³⁶ المصدر نفسه ، الوثيقة 41 .

³⁷ المصدر نفسه ، الوثيقة 42 .

³⁸ Marty (G) ,Op.cit, p322.

³⁹ Jamel Haggui , les algériens originaires du sud dans la ville de Tunis,Op.cit,p 09.

⁴⁰ عبد الكريم الماجري ، هجرة الجزائريين و الطرابلسية و المغاربة الجاؤونة إلى تونس 1831-1937، المرجع السابق ، ص ص 527- 528 .

⁴¹ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 01 ، الملف 01/17 1899-1919 ، الوثيقة 8

⁴² المصدر نفسه ، الوثيقة 13 .

⁴³ Marty (G) , Op.cit ,p330.

⁴⁴ Ibid, p 331 .

⁴⁵ تشمل حاليا ولايتي ادرار و قان و أجزاء من ولايات تيميمون و بشار ، عين صالح ، تمنراست .

⁴⁶ بوكرابلية الزهراء ، "إقليم توات بين التعريف و التأليف" ، مجلة القرطاس للدراسات التاريخية والحضارية والفكرية ، جامعة تلمسان ، العدد الثالث ، جانفي 2017 ، ص ص 194-195 .

⁴⁷ Marty (G) ,Op.cit, p325.

⁴⁸ الأرشيف الوطني التونسي ، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 01 ، الملف 1/18 1916-1923 ، وثيقة 13

⁴⁹ Marty (G) ,Op.cit, p327.

⁵⁰ Ibid, p 325 .

⁵¹ ليلى بن عبد العزيز ، المشائخ بالساحل التونسي 1881-1956 مقارنة في البروزوغرافيا والتاريخ الاجتماعي ، دار المسيرة ، تونس ، 2022 ، ص 102 .

⁵² ابن منظور ، لسان العرب ، ج 3 ، ط 1 ، دار صادر للطباعة و النشر ، بيروت ، ص 31 .

⁵³ ليلى بن عبد العزيز، المرجع السابق ، ص 103 .

⁵⁴ الأرشيف الوطني التونسي ، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 278 ، الملف 2 ، الوثيقة 72 .

⁵⁵ المراقب المدني : من اجل ان تتمكن فرنسا من بسط نفوذها و إحكام سيطرتها على الجهاز الإداري التونسي ، قامت بتنصيب أعوان فرنسيين الى جانب المسؤولين المحليين و يلعب نفس الدور الذي يلعبه الوزير المقيم العام لدى الباي. - أنظر : ليلي بن عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص 68.

⁵⁶ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 01 ، الملف 14/2-1919-1948 ، الوثيقة 06
⁵⁷ ، الأرشيف الوطني التونسي ، وثيقة معلومات لشيخ الوراقلة أحمد بن محمد الصالح ، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 1 ، الملف 18/1 ، الوثيقة 12 .

⁵⁸ الأرشيف التونسي ، السلسلة التاريخية أ ، العلية 18 ، الملف 03 ، الوثيقة 01

⁵⁹ Jamel Haggui , Op.cit, p65.

⁶⁰ الأرشيف الوطني التونسي ، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 01 ، الملف 2/14-1919-1948 ، الوثيقة 106 .

⁶¹ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة أ ، الحافظة 2 ، الملف 2/4 ، الوثيقة 126 .

⁶² الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 01 ، الملف 2/14-1919-1948 ، الوثيقة 85.

⁶³ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية أ ، الحافظ 01 ، الملف 3/20 ، الوثيقة 01 .

⁶⁴ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 278 ، الملف 2-1891-1941 ، الوثيقة 15

⁶⁵ المصدر نفسه ، الوثيقة 11.

⁶⁶ لا يضم هذا السجل كل الجزائريين لان الكثير منهم يرفض تسجيل نفسه عند القنصلية الفرنسية ، كما ان لا يضم التواتية الذي لم يعتبروا

في تلك السنة جزائريين خاضعين لقانون الحماية الفرنسية نظرا لان إقليم لم يحتل الا سنة 1900

⁶⁷ الأرشيف الوطني التونسي، إحصاء المسلمين الجزائريين و الاسرائيليين. دفتر رقم 3968 .

⁶⁸ عامل البراتية : موظف تونسي يتولى إدارة شؤون المهاجرين الأجنب بمدينة تونس و جمع الضريبة منهم ، أنظر : عبد الكريم الماجري ،

هجرة الجزائريين و الطرابلسية و المغاربة الجواننة إلى تونس 1831-1937، ص ص 498-500.

⁶⁹ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 62 ، الملف 1/29-1892-1893 ، الوثيقة 01

⁷⁰ المصدر نفسه ، الوثيقة 5.

⁷¹ المصدر نفسه ، الوثيقة 09.

⁷² الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 01 ، الملف 2/14-1919-1948 ، الوثيقة 01

⁷³ الأرشيف الوطني التونسي، شيوخ الجزائريين ، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 01 ، الملف 1/14-1919-1929

⁷⁴ الأرشيف الوطني التونسي ، شيوخ القسطنطين ، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 01 ، الملف 15.

⁷⁵ الأرشيف الوطني التونسي ، شيوخ الوهارنة ، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 01 ، الملف 16.

⁷⁶ الأرشيف الوطني التونسي ، شيوخ السوافة ، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 01 ، الملف 20.

⁷⁷ الأرشيف الوطني التونسي ، شيوخ الوراقلة ، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 01 ، الملف 19.

⁷⁸ لأرشيف الوطني التونسي ، شيوخ التواتية ، السلسلة التاريخية أ ، الحافظة 01 ، الملف 18.